

# الباب الثالث

العلاقات الخارجية



## العلاقات مع تيمور لنك:

إذا كانت مصر قد تمتعت في السلطنة الثالثة للناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٠٩ - ٧٤١هـ - ١٣٠٩ - ١٣٤٠م، بمركز ممتاز بين دول العالم الهامة، شرقية كانت أو غربية، وإذا كان بلاط الناصر أصبح مركزا لسفراء الدول الأوربية الذين حضروا إلى مصر حاملين الهدايا والكتب المرسلة من ملوكهم إلى الناصر يخطبون فيها وده رغبة منهم في حسن معاملة المسيحيين، وتعبيرا عن تقديرهم له نظرا لاتساع نفوذه، فإن هذه العظيمة التي شهدتها مصر في تلك الفترة ما لبثت أن زالت بدخول مصر في عصر حكم أولاد الناصر وأحفاده، وهي فترة الضعف والانحلال الذي ران على الحياة السياسية في الداخل والخارج قبل سلطنة برقوق، ولذا فإن ملوك أوربا وغيرهم لم يعملوا على استئناف علاقاتهم بمصر على النحو الذي كانت عليه في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون، على أنه لم تكد مصر تقف على قدميها سنة ٧٨٤هـ / ١٣٨٢م في عهد السلطان برقوق، حتى سارعت الدول المتاخمة لها تخطب ودها وتطلب حمايتها، ولا سيما حين بدأت هذه الدول تستشعر الخطر الذي يتهدها حين بدأ شبح التتار يجتاز أواسط آسيا وغربها، بظهور تيمور لنك<sup>(١)</sup> سنة ٧٨٥هـ / ١٣٨٣م، وفي هذه الأثناء عملت مصر من جانبها على أن تكون ملاذا لكل من يلجأ إليها طالبا عونها

(١) أصله من سلالة أحد وزراء المغول، وولد بإحدى قرى سمرقند فيما وراء النهر في ٢٥ شعبان سنة ٧٣٦هـ / ٨ أبريل ١٣٣٦م، واسمه الحقيقي «تمر» ثم أضيف إليه «لنك» ومعناه الأعرج، وذلك بسبب جرح أصابه في فخذه وهو يسرق الغنم، ويعرف تيمور أيضا باسم «كوركأن» أي: صهر الملوك، وما لبث تيمور أن التحق بخدمة حاكم سمرقند، ثم أخضع سمرقند نفسها لحكمه، ومن ثم قوى أمره فضم إليه خوارزم وهرات وسجستان سنة ٧٨٥هـ / ١٢٨٣م وكذلك شمالي فارس، ثم تحرك أخيرا نحو العراق وأطراف الإمبراطورية المملوكية، وكانت وفاة تيمور في ١٩ يناير سنة ١٤٠٥م بعد أن حكم ستا وثلاثين سنة. راجع دائرة المعارف الإسلامية، مادة تيمور، طرخان: الممالك الجراكسة ص ٧٢ - ٧٣.

وتأييدها، فعلى حين رغب جيرانها من أصحاب سنّجار<sup>(١)</sup> وقيصريّة<sup>(٢)</sup> وتكرّيت<sup>(٣)</sup> سنة ٧٨٥هـ / ١٣٨٣م في تبعيتهم للسلطان برقوق وجعلوا خطبة الجمعة باسمه، استجاب برقوق لمطلبهم وكتب لكل منهم تقليداً بنبابة السلطنة في بلده<sup>(٤)</sup>، وعلى حين بدأت طلائع جيوش تيمور لنك تتحرك نحو البلاد المتاخمة للحدود الشرقية للإمبراطورية المملوكية، أرسل أصحابها إلى السلطان برقوق بسفرائهم يستحثونه على اليقظة والاستعداد، فوصلت الأخبار من أمير ماردين<sup>(٥)</sup> إلى القاهرة سنة ٧٨٨هـ / ١٣٨٦م بأن نائراً من المغول يدعى تيمورا قد استولى على البلاد، ووصلت طلائع جيوشه إلى تبريز<sup>(٦)</sup> وخربتها<sup>(٧)</sup>.

وسرعان ما تأكدت هذه الأنباء رسمياً برسالة أخرى إلى القاهرة من الخان أحمد بن أويس الجلّاثرى سلطان بغداد، يستحث فيها السلطان برقوق على اليقظة ويحذره من تيمور لنك<sup>(٨)</sup>.

(١) سنّجار من مدن الجزيرة المشهورة في لطف جبل (ابن عبد الحق: مراصد الاطلاع ج ٢ ص ٧٤٣) وما زالت سنّجار من المدن العامرة في شمالي العراق، لسترانج: بلدان الخلافة الشرقية حاشية رقم ٣٥ ص ١٢٩.

(٢) رسمها صاحب مراصد الاطلاع (ج ٣ ص ١١٣٩) بالسين، واكتفى في تعريفه إياها بأنها مدينة كبيرة في بلاد الروم، وقد كانت قيصرية في زمن بني سلجوق ثانية مدن الروم، وفي مطلع المائة التاسعة كانت قيصرية أولى المدن الكبرى التي استولى عليها جيش تيمور لنك في آسيا الصغرى، لسترانج: بلدان الخلافة الشرقية ص ١٧٨.

(٣) تكرّيت: بلد مشهور بين بغداد والموصل، وتقع على ضفة دجلة الغربية، ابن عبد الحق: مراصد الاطلاع ج ١ ص ٢٦٨.

(٤) المقرّبي: السلوك ج ٣ القسم الثاني ص ٤٩٨، ابن حجر: إنباء الغمر ج ١ ص ٢٧٦.

(٥) ماردين: هي قلعة على جبل بالجزيرة الفراتية مشرفة على دنيسر ونصيبين، ولا تزال قائمة في الشرق من الرها، وتقع حالياً في تركيا، وهي محطة حديدية على بعد ٤١١ كم حلب، راجع أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ١٣ حاشية ١ ص ٦٠.

(٦) تبريز: أشهر بلدة بأذربيجان، وكان بها كرسي بيت هولوكو من التار، وهي مدينة عامرة ذات أسوار محكمة، وهي اليوم (القرن التاسع الهجري) أم إيران جميعاً لتوجه القاصد من كل جهة إليها، وبها محط رحال التجار، انظر أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٨ حاشية ١ ص ١١٩.

(٧) ابن عريشاه: عجائب المقدور ص ٤٩.

(٨) ابن حجر: إنباء الغمر ج ١ ص ٣١٢.

وهناك أرسلت حكومة المماليك أحد عيوها وهو الأمير طغاي، لتقصي الحقيقة بلا إمهال، وعاد هذا الأمير في رجب سنة ٧٨٩هـ / ١٣٨٧م يحمل إلى برقوق أبناء مزعجة، فقد دخلت طلائع جيش المغول بلاد الجزيرة العليا وآسيا الصغرى، دخلت الرها وملطية بعد أن فرقت جند قرًا محمد أمير التركمان<sup>(١)</sup>.

وإذ تأكد برقوق من هذه الأنباء، دعا على الفور إلى عقد مجلس الجيش للتشاور في أمر تيمور لنك، وكان القرار بإنفاذ حملة كبيرة وهي التحريفة التي خرجت من القاهرة في رجب سنة ٧٨٩هـ / ١٣٨٧م وتوجهت إلى حلب<sup>(٢)</sup>، ومنها زحفت نحو ديار بكر بقيادة الأمير الطنبغا الجوباني نائب الشام<sup>(٣)</sup>.

ولقى الجيش المملوكي في طريقه بعضا من فلول جيوش تيمور، إذ تمكنت قوات قره يوسف التركمان أمير الشاه السوداء أن توقع الهزيمة بفرقة من جيش تيمور كانت بقيادة ابنه الذي لقي مصرعه في هذه المعركة، كما أسر أطلمش قريب تيمور وأبرغ قواده وأرسل إلى القاهرة<sup>(٤)</sup>.

وعادت الحملة المملوكية إلى حلب ثم إلى القاهرة سنة ٧٩٠هـ / ١٣٨٨م على حين زحل تيمور لنك إلى بلاده<sup>(٥)</sup>.

وفي منتصف عام ٧٩٥هـ / ١٣٩٣م عادت طلائع جيش تيمور تهدد المنطقة مرة أخرى، ووصلت الأخبار إلى برقوق على يد قاصد من عند أمير ماردين بأن تيمور لنك استولى على تبريز، كما أرسل صاحب بسطام رسالة إلى القاهرة يستحث فيها السلطان برقوق على اليقظة ويخبره بأن تيمور لنك قد استولى على

(١) ابن إياس: بدائع الزهور ج١ - القسم الثاني ص ٣٨٦.

(٢) للمقريزي: السلوك ج٣ - القسم الثاني ص ٥٦٣ - ٥٦٤، ابن إياس: بدائع الزهور ج١ - القسم الثاني ص ٣٨٦ - ٣٨٧.

(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج١١ ص ٢٤٩.

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور ج١ - القسم الثاني ص ٣٨٧، طرخان: المماليك الجراكسة ص ٧٣ - ٧٤.

(٥) ابن حجر: إنباء الغمر ج١ ص ٣٤٨، ابن إياس: بدائع الزهور ج١ - القسم الثاني ص ٣٨٧.

شيراز<sup>(١)</sup>، كما استحثت بعثة أرسلها السلطان العثماني بايزيد الأول، الحكومة المملوكية على اتخاذ الاحتياطات الحربية اللازمة لمواجهة تيمور لنك<sup>(٢)</sup>.

وفي الوقت نفسه أرغمت طلائع جيوش تيمور سلطان بغداد أحمد بن أويس إلى مغادرة بلاده، واستولت على بغداد سنة ٧٩٥هـ / ١٣٩٣م<sup>(٣)</sup>.

ومع ذلك حاول تيمور أن يخاطب ود برقوق، إذ بعث إليه برسالة يدعوه فيها إلى تقوية أواصر الصداقة معه بتبادل الرسل، وأن يمكن تجارته من ممارسة عملهم والانتقال من مكان لآخر آمنين<sup>(٤)</sup>.

لم يرد برقوق على هذه الرسالة، وإنما أمر بقتل سفير المغول<sup>(٥)</sup>، وأعلن عداؤه الصريح لتيمور لنك طارحاً بذلك كل ما تمليه عليه الفطنة في مثل هذا الموقف.

وبدا برقوق يشعر بخطور تيمور لنك ويشك في نواياه، ولذا عمل من جانبه بسرعة على تلافى هذا الخطر، فكوّن حلفاً سريعاً مع القوى التي بدأت هي الأخرى تستشعر خطر تيمور لنك، مثل صاحب سيواس ومغول القفحاق<sup>(٦)</sup> وسلطنة العثمانيين<sup>(٧)</sup>.

واستقبلت مصر في نفس الوقت أحمد بن أويس سلطان بغداد وعدو تيمور لاحقاً إليها، فأحسن استقباله السلطان برقوق في صفر سنة ٧٩٦هـ / ديسمبر ١٣٩٣م، وبالغ في إكرامه كما تزوج من ابنة أخيه<sup>(٨)</sup>.

(١) المقرئزي: السلوك جـ ٣ القسم الثاني من ٧٨٧ - ٧٨٨.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور جـ ١ القسم الثاني ص ٤٦٢.

(٣) ابن حجر: إنباء القمر جـ ١ ص ٤٥٣.

(٤) الغياثي: التاريخ الغياثي ص ١٨٨ - ١٨٩، انظر نص الرسالة بالملحق رقم ٣ ص ٢٠٣.

(٥) موير: دولة المماليك ص ١١٧.

(٦) القفحاق: جنس من الترك يسكنون صحارى تسمى صحارى القفحاق، أهل حل وترحال،

على عادة البدو، القلقشندی: صبح الأعشى جـ ٤ ص ٤٥٦.

(٧) Wiet: op. cit. PP. 518 - 519.

(٨) ابن إياس: بدائع الزهور جـ ١ القسم الثاني ص ٤٦٤، ٤٦٦.

وإذ تطورت الأمور إلى هذا الحد، أخذ برقوق يستعد بحملة كبرى يقودها بنفسه لمحاربة تيمور لنك، وبينما هو مشغول بإعداد هذه الحملة وصلته رسالة ثانية من تيمور يعنفه فيها على قتله لسفيره السابق، كما ينكر عليه إيواؤه لسلطان بغداد أحمد بن أويس<sup>(١)</sup>.

ولكن برقوق أظهر ثباتاً، ورد على تيمور لنك بأسلوب أشد لهجة وأكثر عنفاً، كما طرد رسول تيمور لنك من القاهرة<sup>(٢)</sup>.

وفي ربيع الثاني سنة ٧٩٦هـ / ١٣٩٤م، خرج برقوق على رأس حملة حربية متجهاً نحو الشام لإعادة أحمد بن أويس إلى بغداد ومحاربة تيمور لنك<sup>(٣)</sup>، وفي هذه الأثناء كان تيمور لنك قد قرر العودة مسرعاً نحو بلاده، وذلك حين بلغه أن طَقْمُش خان صاحب بلاد القَفْجاق هاجم بلاده فاضطر إلى الاشتباك معه، ومن هناك زحفت قوات تيمور شرقاً نحو الهند، على حين ترك بغداد تحت حكم ابنه ميران شاه<sup>(٤)</sup>.

وظل السلطان برقوق مجتهداً في سيره بجيشه صوب الشام على الرغم من تأكده بأن تيمور لنك غادر المنطقة واتجه إلى بلاده.

ووصلت طلائع جيش برقوق إلى دمشق في ٢٠ من جمادى الأولى سنة ٧٩٦هـ / ١٣٩٤م<sup>(٥)</sup>، ولم تحدث وقتذاك إلا بضع مناقشات حربية، وقام برقوق بتعيين عدد من رجاله للدفاع عن الحدود الشامية، وعلى هذا استقبلت قلاع ملطية وطرسوس والرها وقلعة الروم قواداً جتدداً على مستوى من الكفاءة التي تتطلبها الظروف في مثل هذه الأحوال<sup>(٦)</sup>.

- 
- (١) المقرئى: السلوك جـ ٣ القسم الثاني ص ٨٠٣ - ٨٠٥، ابن عريشاه: عحاب المقذور في أخبار تيمور ص ٧٠، انظر نص الرسالة بالملحق رقم ٤ ص ٢٠٤.
- (٢) ابن عريشاه: المصدر السابق ص ٧٠ - ٧١، انظر نص الخطاب بالملحق رقم ٥ ص ٢٠٦.
- (٣) ابن الصيرى: نزهة النفوس جـ ١ ص ٣٨٣ - ٣٨٤.
- (٤) ابن حجر: أنباء الغمر جـ ١ ص ٤٧٣، العزائى: تاريخ العراق جـ ٢ ص ٢١٩ - ٢٢٠.
- (٥) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ١٢ ص ٥٦.
- (٦) ابن إياس: بدائع الزهور جـ ١ القسم الثاني ص ٤٦٩ - ٤٧٠.

كما نجح أحمد بن أويس في استعادة بغداد بمساعدة المماليك له، ثم شرع في بناء سورها وتعميرها<sup>(١)</sup>، وبذلك صارت بغداد نيابة تتبع حكومة برقوق منذ ذلك الحين<sup>(٢)</sup>.

وتمكن ابن أويس من الاحتفاظ ببغداد عدة سنوات ضد الهجمات الخاطفة من بعض رجال تيمور، ولم يتمكن تيمور من استرداد بغداد ثانية إلا بعد وفاة السلطان برقوق.

على أن السلطان برقوق ظل مقيماً بالشام لفترة طويلة وهو يراقب حركات تيمور<sup>(٣)</sup>.

وكيفما كان الأمر فقد قرر برقوق العودة إلى القاهرة بعد أن تأكد من ابتعاد الخطر المغولي عن البلاد الشامية<sup>(٤)</sup>، ومات برقوق سنة ٨٠١هـ / ١٣٩٩م دون أن تتاح له الفرصة لإظهار شجاعته في حرب المغول.

وهكذا برهن برقوق على زعامته للعالم الإسلامي والحرص على وحدته، كما برهن على قوته بين دول الشرق الإسلامي كله، لدرجة أفرغت تيمور لك، حتى إنه لم يجسر على التقدم نحو البلاد الشامية إلا بعد أن وصلته الأنباء بوفاة السلطان برقوق، وما تبع وفاته من تفكك في الداخل والخارج.

ومهما يكن من أمر فقد أظهر تيمور سروره لوفاة السلطان برقوق<sup>(٥)</sup>، ومن ثم بدأ في تجهيز جيوشه للانتقاضي على الدولة المملوكية قبل أن تتمكن حكومتها الجديدة من تنظيم صفوفها أو محاولة الاتصال بمخلفاتها.

وكانت الاضطرابات قد سادت بعض دول المنطقة غداة وفاة السلطان برقوق، فقد اضطربت الأحوال في بغداد نتيجة لسياسة القسوة والعنف التي اتبعتها

(١) البغدادي: عيون أخبار الأعيان ورقة ٤٨٠.

(٢) المقرئ: السلوك ج٣ القسم الثاني ص ٨١٤، ابن الصيرفي: نزهة النفوس ج١ ص ٣٨٩.

(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج١٢ ص ٦١.

(٤) ابن حجر: أنباء الغمر ج١ ص ٤٧٥.

(٥) السخاوي: الضوء اللامع ج٣ ص ٤٦، الشوكاني: البدر الطالع ج١ ص ١٧٤.

سلطانها أحمد بن أويس، مما كان سبباً في ثورة الأمراء عليه وطرده، وما لبث تيمور أن انقض على بغداد في سنة ٨٠٢هـ / ١٣٩٩م واستولى عليها<sup>(١)</sup>.  
وفوق ذلك فإن التحالف الذي كان بين السلطان برقوق وبين بعض دول المنطقة فقد أهميته بعد وفاة السلطان برقوق.

فقد رفضت مصر محالفة السلطان العثماني بايزيد الأول أو الوقوف بجانبه في وجه الخطر التيموري، بسبب استيلاء العثمانيين على بعض البلدان التابعة للحكومة المملوكية عقب وفاة برقوق<sup>(٢)</sup>.

وهكذا أخطأ السلطان فرج كما أخطأ أمراؤه في هذه السياسة، وكان الأولى بالحكومة المملوكية أن تتعاون مع السلطنة العثمانية في مثل هذه الظروف الحرجة، وأن يظهر السلطان فرج، معظهم والده الذي حرص على تزعم العالم الإسلامي والزود عن وحدته.

وكيفما كان الأمر فقد زحف تيمور نحو هذه المناطق التي لم يجرؤ على التقدم نحوها في أيام السلطان برقوق، وعندما سمع السلطان فرج بعودة تيمور إلى الشام وبأنه استولى على حلب وأخذ يهدد دمشق، خرج من مصر على رأس جيش كبير في العاشر من ربيع الآخر سنة ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م<sup>(٣)</sup>.

وعلى حين وصل السلطان فرج إلى دمشق ٦ جمادى الأولى سنة ٨٠٣هـ / يناير ١٤٠١م، وجد أمراءها منقسمين بسبب الهزيمة التي حلت بالجيش المملوكي في حلب، فقد عزا الجراكسة هذه الهزيمة إلى دمر دأش التركي نائب حلب، وأهموه بتواطئه مع الأعداء بغضا منه في الجراكسة وأنه لو ثبت بجيشه في حلب لأمكنه أن يهزم تيمور لنك<sup>(٤)</sup>.

(١) ابن حجر: إنباء الغمر ج ٢ ص ١٠٨.

(٢) ابن حجر: نفس المصدر والجزء ص ٥٥، ابن إياس: بدائع الزهور ج ١ القسم الثاني ص ٥٤٧.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور ج ٢ القسم الثاني ص ٦٠٣.

(٤) ابن قاض شهبه: ذيل تاريخ الإسلام المجلد الثاني ورقة ١٧٤ - ١٧٥.

وكيفما كان الأمر فقد ظل السلطان فرج مقيماً بدمشق مدة أسبوعين تقريباً، وفي خلال ذلك اشتبكت جيوشه مع جيوش تيمور لنك ثلاث مرات دون أن يحرز كل من الجيشين نصراً على الآخر<sup>(١)</sup>.

وأدرك الناصر فرج حرج موقفه في الشام بعد ما بدأ من كبار العسكريين أن ما بقي لديهم من قوات صار لا يكفي للهجوم على تيمور لنك، وإنما يكفي للدفاع فقط<sup>(٢)</sup>.

وفوق ذلك فوجئ السلطان باختفاء جماعة من أمرائه، وأشيع توجيههم إلى القاهرة ليستلثوا الشيخ لاجين الجركسي، فلم يسع أنصار فرج إلا أن أجبروه على العودة إلى مصر<sup>(٣)</sup>.

وهكذا غادر فرج دمشق خفية وهي في أسوأ حال.

وبفرار السلطان فرج وكبار مستشاريه العسكريين غدت دمشق بغير قيادة عسكرية، ولم يبق بها سوى أربعة أمراء صغار، لا تعدو رتبة كل منهم وظيفة أمير عشرة<sup>(٤)</sup>.

وتركت أمور الدفاع عن المدينة للأهلين الذين كانوا يطاردون بعضاً من أفراد العدو خارج المدينة، ولكنهم عادوا فأغلقوا أبواب المدينة في اليوم التالي لفرار السلطان فرج، وظلوا يقاتلون من فوق السور بيسالة نادرة<sup>(٥)</sup>.

وكان تيمور قد لجأ في هذه الأثناء إلى الحيلة والدهاء، عندما عرض على أهل دمشق رغبته في الصلح<sup>(٦)</sup>، ومن ثم اعتمدت مدينة دمشق على فريق من القضاة في إسداء المشورة وإدارة شئونها، ولا سيما ما يتصل بالمفاوضات مع تيمور لنك.

(١) ابن خلدون: التعريف بابن خلدون ص ٣٦٧.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٢٣٥.

(٣) ابن خلدون: نفس المصدر والصفحة، المقرئ: السلوك ج ٣ القسم الثالث ص ١٠٤٤ - ١٠٤٥.

(٤) ابن الصريفي: نزهة النفوس ج ٢ ص ٨٤.

(٥) المقرئ: السلوك ج ٣ القسم الثالث ص ١٠٤٦.

(٦) ابن حجر: إنباء الغمر ج ٢ ص ١٣٧، فيشل: لقاء ابن خلدون لتيمور لنك ص ١٠٣.

وانتخب أهل دمشق القاضي برهان الدين بن مفلح الخنبلي سفيرا لهم، لأنه كان يجيد الفارسية والتركية، وأنزلوه بحبل من السور، وبصحبته خمسة من كبار العلماء بدمشق، من بينهم ابن خلدون<sup>(١)</sup>.

ظل هذا الوفد يتردد بين أهل دمشق وبين تيمور وهو يأتيه بالأموال والدواب والأسلحة التي طلبها تيمور بمقتضى الاتفاق الذي تم بينه وبين ابن مفلح<sup>(٢)</sup>.

وعلى الرغم من كل ذلك فإن تيمور لنك لم يقنع بما جباه ابن مفلح من أهل دمشق من الأموال، بل طالبه بالمزيد منها، وحين عجز ابن مفلح عن الاستمرار في جباية الأموال، قبض عليه تيمور لنك<sup>(٣)</sup>.

ولم تلبث جيوش تيمور لنك أن انقضت على المدينة ودخلتها أفواجا تعبت فيها غبا وتخريبا، وهكذا انتقم تيمور من المدينة أشنع انتقام حين سبى نساءهم وأضرم النار فيها، حتى فنيت مساجدها ودورها وأسواقها وتحولت إلى أطلال بالية<sup>(٤)</sup>.

وكان بمقدور الحكومة المملوكية أن تمنع هذه الكارثة أو تقلل من أضرارها لو أنها قبلت التحالف مع السلطنة العثمانية في مثل هذه الظروف الحرجة، على أن هذا الموقف من جانب الحكومة المملوكية قد سبب استياء شديدا لبعض المؤرخين المعاصرين كأبي المحاسن، الذي أخذته الحسرة على عدم الوحدة بين القوتين العثمانية والمملوكية، وأشار — نقلاً عن العسكريين المعاصرين — إلى أنه لو تم هذا التحالف يومئذ، لأمكن تعويض الدراية الحربية التي كان يفتقدها الجيش

(١) ابن خلدون: التعريف بابن خلدون ص ٣٦٧ - ٣٦٨، ابن إياس: بدائع الزهور، ج ١، القسم الثاني ص ٦١٠ - ٦١١.

(٢) المقرئى: السلوك ج ٣ القسم الثالث ص ١٠٤٦ - ١٠٤٩.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور ج ١ القسم الثاني ص ٦١٤، فيشل: لقاء ابن خلدون لتيمور لنك ص ١٥٥.

(٤) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٢٤٥ - ٢٤٦.

الملوكى وقتئذ عن طريق تفوق الجيش العثماني في الفنون الحربية، ولأمكن أيضاً تعويض قلة الجند العثماني بالكثرة المتوفرة في الجيش المملوكى<sup>(١)</sup>.

على أن كارثة دمشق — والحالة هذه — لم تكن مجرد كارثة حربية وحسب وإنما هي فوق ذلك كارثة حضارية، أدت إلى انحطاط الفنون وتأخرها في المنطقة لفترات طويلة، نتيجة لترحيل أرباب الصنائع والمهن المختلفة إلى سمرقند.

وئمة نتيجة ثانية لغزو تيمور لهذه المنطقة وانتصاره فيها، وهي أن الانتصار على الدولة المملوكية التي تزعمت العالم الإسلامى وقتئذ كان له أسوأ الأثر في الدول المجاورة، حيث عجز السلطان وولاته عن دفع هذا الغزو.

### علاقة برقوق بمغول القفجاق:

أصبحت البلاد الواقعة قرب قزوين وحوض نهر الفولجان من نصيب جوجى ابن جنكيز خان، غداة أن قام جنكيزخان بتقسيم دولته الكبيرة بين أولاده الأربعة، وصارت الدولة الجديدة تعرف باسم مغول القفجاق، أو القبيلة الذهبية، نسبة إلى خيام معسكراتهم ذات اللون الذهبى<sup>(٢)</sup>.

وقد خالفت هذه الدولة أبناء جنسها من مغول فارس، فنشأت أواصر الصداقة بينها وبين المماليك البحرية في مصر على عهد السلطان بيبرس البندقدارى (٦٥٨ - ٦٧٩ هـ = ١٢٦٠ - ١٢٧٩ م) وذلك بعد أن اعتنق رئيسها بركة (١٢٥٦ - ١٢٦٧ م) الإسلام، ودخل في حلف مع السلطان بيبرس ضد مغول فارس<sup>(٣)</sup>.

وبذلك توثقت عرا الصداقة بين الدولتين بعد أن ربطت بينهما الروابط الروحية والإحساس بالخطر المشترك من جانب مغول فارس.

(١) أبو المحاسن: نفس المصدر والجزء ص ٢١٧.

(٢) ابن خلدون: العبر ج ٥ ص ٤٣٠، سعيد عاشور: العصر المماليكى في مصر والشام ص ٢٢٦.

(٣) سرور: دولة الظاهر بيبرس ص ١٠٢ - ١٠٣.

ولم يكن لوفاة بركة خان سنة ٦٦٥هـ / ١٢٦٧م، تأثير على هذه العلاقات في عهد خلفه مَنكُوتْمُر، بل استمر تبادل البعثات السياسية بين الدولتين بقصد التضييق على أسرة هولاکو والقضاء عليها<sup>(١)</sup>.

وإذا كان الناصر محمد بن قلاوون قد عمل من جانبه سنة ٧٢٠هـ على تدعيم الصلات بينه وبين مغول القفجاق عن طريق المصاهرة بزواجه من «البيت الجنكزخان»<sup>(٢)</sup> فإن هذه العلاقات قد أصابها الفتور بل التوقف في تلك السنوات المظلمة من عصر المماليك على عهد أولاد الناصر محمد بن قلاوون وأحفاده.

ولم تكد مصر تقف على قدميها في عهد السلطان برقوق حتى أرسل طُقْتُمُش ملك القفجاق في سنة ٧٨٧هـ / ١٣٨٥م بعثة سياسية إلى السلطان برقوق محملة بالهدايا ومعها رسالة من ملكهم، وفيها «إنا نحب أن نكون إخوة كما كان أسلافنا مع أسلافكم»<sup>(٣)</sup>.

وقد تغالى برقوق في إكرام هذا الوفد، حيث استقبل بموكب عسكري حافل، ضم على رأسه كبار الأمراء والحجاب<sup>(٤)</sup>.

وعلى حين خرج برقوق بجيشه من مصر سنة ٧٩٦هـ / ١٣٩٤م متجها نحو دمشق، استعدادا لمواجهة تيمور لَنك، لم يلبث ملك القفجاق أن أرسل بعثة سياسية أخرى تعرض على برقوق معاونة طقتمش له «وأن يكونوا يدا واحدة على ممر لَنك»<sup>(٥)</sup>.

وهكذا ظلت العلاقات بين السلطان برقوق ودولة مغول القفجاق أقوى ما تكون صفاء في هذه الفترة، حتى تقدمت القبيلة الذهبية أمام هجمات تيمور لَنك

(١) المقرئى: عقد الجمان جـ ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٥٣٧.

(٢) النويرى: نهاية الأرب جـ ٣٠ ورقة ١٣٨.

(٣) ابن حجر: إنباء الغمر جـ ١ ص ٣٠١.

(٤) ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ ١ ص ١١٥.

(٥) ابن حجر: إنباء الغمر جـ ١ ص ٤٧١.

في أواخر القرن الرابع عشر ٧٩٧هـ / ١٣٩٥م، ثم تلاشى نفوذها تماما في القرن الخامس عشر<sup>(١)</sup>.

## العلاقة بين مصر والدول العربية الآسيوية:

(أ) بلاد الحجاز:

ارتبط أشرف الحجاز برابطة التبعية للسلطان برقوق الذي كان يلقب بسلطان مصر والحجاز<sup>(٢)</sup>.

وقد حرص السلطان برقوق أن تكون مساعداته الاقتصادية لأهل مكة جزءاً من سياسته العامة نحو الحجاز، فكان يبعث في كل سنة إلى الحجاز ثلاثة آلاف إردب قمحا تفرق على سكان الحرمين والمجاورين فيه<sup>(٣)</sup>.

كما أبدى برقوق اهتماما خاصا بعمارة الحرم النبوي وإرسال الكسوة إليه<sup>(٤)</sup>.

على أن عناية السلطان برقوق لم تقتصر على هاتين الناحيتين، وإنما امتدت تلك العناية إلى بسط نفوذه على بلاد الحجاز، وأخذت الطابع الاقتصادي التجاري، نظرا لاعتماد برقوق على التجارة كمورد هام من موارده، الأمر الذي جعله يسند وظيفة الإمرة في مكة إلى أمراء أقوياء، يدينون له بالطاعة حتى يضمن أمان شواطئ ينبع وجدة وطرق القوافل التي تخترق الحجاز، وتجعل من مكة سوقا تجاريا هاما<sup>(٥)</sup>.

(١) سعيد عاشور: الممالك البحرية ص ٥٠.

(٢) Dopp: L'Egypte au commencement de quizieme siecle d'apres le traite d'Emmanuel piloti de crete p. 41.

(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ١٠٩، الرشيدى: حسن الصفا ورقة ٣٩.

(٤) الفاسى: العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين ج ٣ ص ١٩٦، الرشيدى: المصدر السابق ورقة ٤٠.

(٥) حكيم أمين: دولة المماليك الثانية ص ١٥٥.

## (ب) بلاد اليمن:

لم تكن العلاقات ودية بصفة دائمة بين اليمن وسلاطين مصر الأقوياء في الدولة المملوكية الأولى، وإنما تخللها فترات رغبت فيها اليمن في الانفصال عن المماليك، كما أظهرت عصيانها نحوهم.

وظهرت بوادر هذا العصيان والرغبة في الانفصال عن المماليك بصورة واضحة على عهد الناصر محمد بن قلاوون أثناء سلطته الثانية، وذلك عندما رفض الملك المؤيد هزبر الدين داود بن يوسف بن رسول، الهدية التي اعتادت اليمن إرسالها إلى سلطان مصر في كل عام، الأمر الذي ترتب عليه إرسال إنذار إلى ملك اليمن في سنة ٧٠٧هـ / ١٣٠٧م، بسبب لجوئه إلى هذا المسلك العدائي مع سلطان مصر وقتئذ<sup>(١)</sup>.

ثم تزايد العداء بين مصر واليمن أثناء سلطنة الناصر محمد الثالثة، وذلك عندما قدم إلى مصر سنة ٧٣٠هـ / ١٣٢٩م، «رسول صاحب اليمن بهدية، فقيد وسجن، لأن صاحب الهند بعث إلى السلطان بهدايا، فأخذها صاحب اليمن، وقتل بعض من كان معها، وحبس بعضهم»<sup>(٢)</sup>.

وإذا كانت العلاقات بين مصر واليمن قد أصيبت في بعض الأوقات بالفتور والضعف على هذا النحو قبل سلطنة برقوق، فقد حرص السلطان برقوق على أن تكون العلاقة بينه وبين اليمن ودية، وذلك منذ اعتلائه عرش السلطنة.

وربما كان من أهم أسباب حرصه على صفاء هذه العلاقات، هو العمل على ضمان سلامة التجارة الشرقية ومرورها باليمن دون أن تتعرض للخسائر من جانب حكام اليمن.

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٢٢٦، على إبراهيم: تاريخ المماليك البحرية ص ١٣٥.

(٢) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر ج ٤ ص ١٠١.

ولهذا السبب كان السلطان برقوق هو البادئ بإرسال الهدايا سنة ٧٨٧هـ / ١٣٨٥م إلى الأشرف إسماعيل ملك اليمن، ثم توالى هدايا الملك الأشرف من هذه السنة<sup>(١)</sup>.

ولم تقف العلاقات بين اليمن ومصر عند تبادل الهدايا، بل تجاوزتها إلى تبادل المكاتبات، وجمعة مكاتبات دارت بين الطرفين حرص فيها الأشرف إسماعيل ملك اليمن على الإعراب عن ولائه للسلطان برقوق، كما يبدو من الرسالة التي أرسلها الأشرف إسماعيل إلى السلطان برقوق سنة ٧٩٨هـ / ١٣٩٦م، وفيها يؤكد الأشرف إسماعيل ولاءه لبرقوق ويطلب منه السماح له بالحج وتسفير المحمل، كما زود صاحب اليمن سفيره إلى برقوق بهدية حافلة<sup>(٢)</sup>.

وهكذا ظلت العلاقات ودية مع الدولة الرسولية باليمن، ما دام صاحب اليمن يعمل من جانبه على ضمان سلامة التجارة الشرقية في مرورها باليمن<sup>(٣)</sup>.

### العلاقات مع الدول الإسلامية في شمال أفريقية:

أما الدول الإسلامية بشمال إفريقية — وهي: دولة بني حفص بتونس، ودولة بني زيّان بتلمسان، ودولة بني مرّين بفاس والمغرب — فقد تنوعت العلاقات بينها وبين مصر في عصر السلطان برقوق، فكانت هناك روابط الجوار والإسلام والتبادل الثقافي، ثم رابطة الحج باعتبار مصر مجازا لحجاج المغرب إلى أرض الحجاز، وأخيراً هذه العلاقات التجارية المتعددة بين التجار المغاربة وتجار الإسكندرية<sup>(٤)</sup>، وقد أشار ابن خلدون إلى أنه أتى إلى مصر سنة ٧٨٤هـ / ١٣٨٢م على ظهر سفينة مصرية كانت قد قصدت تونس للتجارة<sup>(٥)</sup>.

(١) الخزرجي: العقود اللؤلؤية جـ ٢ ص ١٨٢.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى ج ٨ ص ٧٢ - ٧٦، انظر نص المكاتبه بالملاحق رقم ٦ ص ٢٠٩.

(٣) Dopp: op. cit. P 42 nots. 1.

(٤) Dopp: op. cit. P.P. 57 - 59.

(٥) ابن خلدون: التعريف بابن خلدون ص ٢٤٥.

والمعروف أن السلطان برقوق تولى عرش مصر في ١٩ رمضان سنة ٧٨٤هـ / ١٣٨٢م، وهو نفس الشهر الذى وصل فيه إلى مصر ابن خلدون قادما من بلاد المغرب<sup>(١)</sup>.

والملاحظ أن وصول ابن خلدون إلى مصر كان من العوامل التى ساعدت على استمرار العلاقات بين مصر وسلاطين المغرب، فقد عمل من جانبه على توثيق الروابط بين بلاده وبين السلطان برقوق.

وتجلت هذه الروابط حين طلب ابن خلدون من السلطان برقوق أن يشفع له لدى السلطان الحفصى أبو العباس أحمد بن أبي عبد الله صاحب تونس لكي يرسل إليه أهله وولده، استجاب السلطان برقوق لرغبة ابن خلدون وأرسل إلى السلطان الحفصى في ١٥ صفر سنة ٧٨٦هـ / ١٣٨٤م خطابا يرجوه فيه أن يرسل أسرة ابن خلدون إلى مصر<sup>(٢)</sup> وسرعان ما لبى السلطان الحفصى طلب برقوق وبعث بسفينة محملة بالهدايا وعليها كذلك أسرة ابن خلدون، وعلى حين اقتربت السفينة من الإسكندرية هبت عليها العواصف فأغرقتها وغرقت معها أسرة ابن خلدون، ولم ينبج من هذه الكارثة سوى رسول السلطان الحفصى، فأكرمه برقوق ورده إلى بلاده وصحبه هدية حافلة<sup>(٣)</sup>، على أن هذا لا يعنى أن العلاقات بين برقوق والسلطان الحفصى أبي العباس اقتصرت على تبادل الهدايا والمجاملات، ولكنها تجاوزتها إلى المسائل السياسية فعندما علم السلطان الحفصى أبو العباس نبأ خلع برقوق في جمادى الأولى سنة ٧٩١هـ / ١٣٨٩م استاء لذلك استياء شديدا، وظل يراقب ما يجرى بمصر، ويستطلع جلية الأمر ويستكشفه من أبناء تونس القادمين من مصر<sup>(٤)</sup>، وحين وصلته الأنباء بعودة برقوق إلى عرشه مرة أخرى في سنة ٧٩٢هـ / ١٣٩٠م سارع بإرسال بعثة سياسية إلى القاهرة محملة بالهدايا

(١) المقرئى: السلوك جـ ٣ القسم الثانى ص ٤٨٠.

(٢) ابن خلدون: التعريف بابن خلدون ص ٢٤٩.

(٣) ابن خلدون: العمر وديوان المبتدأ والخبر جـ ٥ ص ٤٧٩ - ٤٨٠.

(٤) ابن خلدون: نفس المصدر والجزء ص ٥٠١.

ومعها كتاب إلى السلطان برقوق بالتهنئة بالعودة إلى ملكه<sup>(١)</sup>، ويبدو من العبارات التي ذكرها القلقشندي أن ثمة خطابات تبودلت في هذا الشأن بين السلطان الحفصي أبي العباس أحمد من جهة<sup>(٢)</sup>، وبين السلطان برقوق من جهة أخرى<sup>(٣)</sup>. هذا عن العلاقات بين السلطان برقوق ودولة الحفصيين في تونس، أما عن العلاقة بيني مَرِين في فاس فقد اتسمت هي الأخرى بروح المودة والإنحاء في هذه الفترة.

ويكفي أن السلطان أبا العباس أحمد بن أبي سالم قبل شفاعة السلطان برقوق في يوسف بن علي بن غانم أحد شيوخ العرب بالمغرب وكان يوسف قد لجأ إلى القاهرة سنة ٧٩٣هـ / ١٣٩٠م ناجيا من سخط السلطان أحمد بن أبي سالم<sup>(٤)</sup>.

وعلى حين رغب السلطان برقوق سنة ٧٩٩هـ / ١٣٩٦م في شراء الخيول من المغرب بعث برسائله وهداياهم إلى سلطان<sup>(٥)</sup> بني مَرِين بفاس، وعادت رسل برقوق محملة بالهدايا ومعها الخيول المنتقاة<sup>(٦)</sup>، على أن هذه العلاقات أيضاً لم تقتصر على تبادل الهدايا والمجاملات، بل تعدتها إلى المسائل السياسية، فقد وقف بنو مَرِين من سلطنة المماليك في مصر على عهد السلطان فرج بن برقوق موقف

(١) المقرئ: السلوك جـ ٣ القسم الثاني ص ٧٢٤.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى جـ ٨ ص ٧٩ - ٨٤، انظر نص الخطاب بالملحق رقم ١ ص: ٢٠١.

(٣) القلقشندي: المصدر السابق جـ ٧ ص ٣٧٩ - ٣٨٤، انظر نص الخطاب بالملحق رقم ٢ ص ٢٠٢.

(٤) ابن خلدون: التعريف بابن خلدون ص ٣٣٩ - ٣٤٠، السلاوي: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى: جـ ٢ ص ١٤٠.

(٥) كان سلطانها وقتئذ هو أبو عامر عبد الله بن أبي العباس بن أبي سالم، وكان قد يبيع بعد أخيه أبي فارس عبد العزيز سنة ٧٩٩هـ توفى سنة ٨٠٠هـ، السلاوي: الاستقصا جـ ٢ ص ١٤٢.

(٦) ابن خلدون: التعريف بابن خلدون ص ٣٤٠.

المتربق، عندما دهم خطر التتار المشرق العربي أيام تيمور لنك سنة ٨٠٣هـ / ١٤٠١م.

ويفهم من العبارات التي ذكرها القلقشندى أن كتابا ورد من صاحب فاس<sup>(١)</sup> في هذا الشأن<sup>(٢)</sup>، وأن ثمة رسالة من السلطان فرج بن برقوق يشرح فيها للسلطان المريني الأسباب التي دعتة إلى مغادرة دمشق والعودة إلى مصر، مبررا ذلك بأنه بلغه أن جماعة من الخونة تركوه وتوجهوا إلى مصر للاستيلاء على السلطة وإقامة سلطان جديد، وأنه لم يسعه إلا الإسراع في طلبهم، للقبض عليهم، وأن تيمور لنك ظن أننا قصدنا مصر لخوف منه أو فشل، فأخذ في خداع أهل دمشق حتى سلموها إليه، ثم قام بتدميرها<sup>(٣)</sup>.

والمعروف عن سلطان فاس وتعتقد أنه جهز في سنة ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م، ثلاثة آلاف فارس وعشرين سفينة حربية لمساعدة المسلمين في الأندلس أثناء حزمهم مع الفرنج<sup>(٤)</sup>.

أما عن العلاقات بين زيان في تلمسان فقد اتسمت كذلك بالمودة حيث تبادل سلطانها الهدايا مع السلطان برقوق، وفي حين رغب السلطان برقوق سنة ٧٩٩هـ / ١٣٩٦م في شراء الخيول من المغرب، بعث برسائله وهداياها إلى صاحب تلمسان أبي زيان بن أبي حمّو، فاستجاب أبو زيان لطلبه، وعادت رسل برقوق محملة بالهدايا ومعها الخيول المنتقاة<sup>(٥)</sup>.

(١) كان سلطانها وتعتقد هو أبو سعيد عثمان بن أبي العباس بن أبي سالم وكان قد بويع بعد أخيه أبو عامر عبد الله سنة ٨٠٠هـ، توفي سنة ٨٢٣هـ، المقرئ: السلوك ج٢ القسم الثاني ص ٩١٣، ج٤ القسم الأول ص ٥٤٥.

(٢) القلقشندى: صبح الأعشى ج٨ ص ١٠٣، انظر نص الخطاب بالملحق رقم ٧ ص ٢١٠.

(٣) القلقشندى: صبح الأعشى ج٧ ص ٤٠٧ - ٤١١، انظر نص الخطاب بالملحق رقم ٨ ص ٢١١.

(٤) المقرئ: السلوك ج٤ القسم الأول ص ٤.

(٥) ابن خلدون: التعريف بابن خلدون ص ٣٤١.

وهكذا تعددت العلاقات وازدادت الروابط بين مصر في عهد السلطان برقوق وابنه وبين المغرب العربي، مما يعتبر من أقوى الأدلة والشواهد على وَحْدَةِ التاريخ العربي منذ الأزمنة السالفة.

### سياسية مصر ازاء بلاد النوبة والحبيشة:

#### ( أ ) بلاد النوبة:

وفيما يتعلق بالنوبة فقد شملتها الاضطرابات منذ أن تغلب الكنوز على عرشها، وأصبحوا يشكلون خطراً على حدود مصر الجنوبية، فهاجموا أسوان سنة ٧٨٧هـ / ١٣٨٥م وهبوا وقتلوا كثيراً من أهلها، حتى اضطر واليها إلى الهرب، مما حدا بالسلطان برقوق أن يبعث إلى أسوان بحامية عسكرية كبيرة، وأسند قيادتها للأمير حسين بن قرط التركماني<sup>(١)</sup>، على أن هذه الإجراءات لم تمنع الكنوز من السلب والنهب، بل عاودوا الإغارة على أسوان مرة أخرى سنة ٧٩٨هـ / ١٣٩٥م<sup>(٢)</sup>.

وفي سنة ٨٠٠هـ / ١٣٩٨م، وجد السلطان برقوق فرصته في استعادة سيطرته على إقليم أسوان وبسط نفوذه على النوبة، حين قدم إليه نصر الدين ملك النوبة مستنجداً به ضد ابن عمه، فأظهر برقوق استعداداه لمعاونته، وعين على أسوان والياً يدعى إبراهيم الشهابي، وأمره بمساندة الأمير اللاجئ، ثم شفع برقوق لهذا الأمير عند ابن عمه وأعادته إلى بلاده<sup>(٣)</sup>.

وهكذا استعادت السلطنة المملوكية نفوذها في هذه الفترة على أسوان، غير أنه كان نفوذاً مؤقتاً، إذ سرعان ما اضطربت الأمور في مصر ٨٠٦هـ / ١٤٠٣م، على عهد السلطان فرج بن برقوق بسبب ما حل بالبلاد من مجاعات

(١) ابن الصوري: نزهة النفوس جـ ١ ص ١١٩.

(٢) المقرئ: السلوك جـ ٣ القسم الثاني ص ٨٦٠ - ٨٦١.

(٣) ابن حجر: إنباء الغمر جـ ٢ ص ٧، العيني: عقد الجمان جـ ٢٥ لوحة ٢١، مسعد: الإسلام والنوبة في العصور الوسطى ص ١٨١.

وأويبة ومنازعات بين الأمراء على الاستئثار بالسلطة والنفوذ، وترتب على قصور النيل في هذه السنة خراب إقليم الصعيد «فارتفعت يد السلطنة عن ثغر أسوان، ولم يبق للسلطان (فرج) في مدينة أسوان وال، واتضع حاله عدة سنين»<sup>(١)</sup>.

(ب) بلاد الحبشة:

أما بالنسبة لبلاد الحبشة، فقد حرص السلطان برقوق أن تكون هذه العلاقات ودية، حيث كانت الكنيسة المصرية والحبشية ترتبطان بالمذهب الأرثوذكسي، وتعتبر الكنيسة الحبشية جزءاً من الكنيسة القبطية، وكان من مظاهر الارتباط بين الكنيستين أن ملك الحبشة كان كلما خلا منصب المطرانية في بلاده، لجأ إلى سلطان مصر يرجوه في أن يأذن لبطريرك الإسكندرية بإرسال مطران جديد إلى الحبشة، ويعلن ذلك بواسطة سفير يحمل بالهدايا إلى مصر<sup>(٢)</sup>.

ولذلك عندما تعرضت أسوان للغزو سنة ٧٨٣هـ / ١٣٨١م من جانب ملك الحبشة داود بن سيف أرعد، اتجه برقوق إلى علاج هذه المشكلة بالطرق الودية، إذ استدعى متي بن سمان بطريرك الإسكندرية، وطلب منه أن يكتب إلى صاحب الحبشة باستنكار هذا الهجوم، ويطلب إليه الانسحاب<sup>(٣)</sup>.

وكان ملك الحبشة أشد حرصاً على استمرار العلاقات الودية بينه وبين برقوق، حيث لم يتردد عن إجابة الطلب<sup>(٤)</sup>.

على أن العلاقات بين الدولتين لم تقتصر عند هذا الحد، فقد استقبل السلطان برقوق سنة ٧٨٨هـ / ١٣٨٧م، بعثة حبشية تحمل هدايا الإمبراطور داود، وقد حملت الهدية على واحد وعشرين جملاً، واشتملت على طرائف بلادهم، وكان

(١) المقرئزي: المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ١٩٨ - ١٩٩.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى ج ٨ ص ٤٠ - ٤١، المقرئزي: الإلام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام ص ٣.

(٣) بن حجر: إنباء الفهر جـ ١ ص ٢٣٢ - ٢٣٣، ابن إياس: بدائع الزهور جـ ١ القسم الثاني ص ٢٨٩.

(٤) مقدمة مراد كامل لكتاب الجيمي: سيرة الحبشة ص ٢١.

من جملة الهدية عدة قدور ملكت بذهب، قد صيغ على هيئة الحمص، وعدة جوار حبشية، وغير ذلك من التحف الغريبة<sup>(١)</sup>.

وإذا كان داود ملك الحبشة رغب في تجنب ما يؤدي إلى إساءة العلاقات بينه وبين السلطان برقوق، فإنه عاد في سنة ٨٠٥هـ / ١٤٠٢م في أوائل سلطنة الناصر فرج بن برقوق منتهزا فرصة ضعف هذا السلطان، وتنازع الأمراء على الاستئثار بالسلطة، وهاجم السلطنات الإسلامية في زَيْلَع، وقتل من المسلمين عدداً كبيراً<sup>(٢)</sup>.

### العلاقات مع العثمانيين:

وفيما يتعلق بالروابط بين مصر والدولة العثمانية، فقد اتسمت بالتنافس على تزعم العالم الإسلامي وقتئذ.

على أن هذه الروابط قد تحولت إلى شعور ودي متبادل حين تعرض كل من الدولتين للخطر المشترك من ناحية تيمور لَنك.

وذلك حين أرسل السلطان العثماني مراد الأول سنة ٧٩٠هـ / ١٣٨٨م، بعثة سياسية إلى السلطان برقوق محملة بالهدايا ومعها رسالة يتحدث فيها السلطان العثماني عن تحركات تيمور لَنك من تبريز صوب حدود الدولتين، وأنه ينبغي الاستعداد للوقوف في وجه هذا الخطر الداهم<sup>(٣)</sup>.

ولم يلبث السلطان العثماني بايزيد الأول أن أرسل بعثة سياسية أخرى إلى القاهرة سنة ٧٩٥هـ / ١٣٩٢م، حين تأكد لديه اقتراب خطر تيمور لَنك، وحملت رسله الهدايا الحافلة إلى السلطان برقوق، كما طلبت منه أن يأخذ حذره من خطر تيمور لَنك، وذلك بالاستعداد الحربي واليقظة الدائمة<sup>(٤)</sup>.

(١) ابن إياس: بدائع الزهور ج١ القسم الثاني ص ٣٧٩.

(٢) ابن حجر: إنباء الغمر ج٢ ص ٢٣٧ - ٢٣٨، حكيم أمين: قيام دولة المماليك الثانية ص ١٦١.

(٣) ابن حجر: إنباء الغمر ج١ ص ٣٤٩، ابن الصريف: نزهة النفوس ج١ ص ١٦٧.

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور ج١ القسم الثاني ص ٤٦٢.

كذلك طلب السلطان العثماني من برقوق تجهيز طبيب من أطباء القاهرة ليداويه، فاستجاب برقوق وأرسل له الطبيب الرئيس شمس الدين بن صغير، ومعه كمية كبيرة من الأدوية والعقاقير المطلوبة<sup>(١)</sup>.

على أن علاقة الود بين سلطنة العثمانيين وسلطنة المماليك تعرضت للفتور والضعف بسبب أطماع العثمانيين، وذلك عندما نجد السلطان بايزيد صديق السلطان برقوق يغير على أطراف الدولة المملوكية بعد وفاة برقوق، ويستولى على مَلْطِيَّة في سنة ٨٠١هـ / ١٣٩٩م<sup>(٢)</sup>.

وبالرغم من ذلك فإن بايزيد لم ير حرجا بعد ذلك في أن يطلب مخالفة السلطان فرج، حين اقترب منه الخطر التيمورى مرة أخرى سنة ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م غير أن كبار الأمراء في مصر لم يرغبوا في هذا الحلف، وكتبوا له يذكرونه باستيلائه على ملطية<sup>(٣)</sup>.

### العلاقات بين مصر والدولة البيزنطية:

كذلك كانت العلاقات الودية بين مصر والدولة البيزنطية، وقد استأنفت هذه العلاقات على عهد السلطان برقوق بعد أن أصابها الفتور زمن أولاد الناصر محمد ابن قلاوون وأحفاده.

وتجملت هذه العلاقات الطيبة عندما أرسل الإمبراطور حنا الخامس بعثة إلى السلطان برقوق سنة ٧٨٧هـ / ١٣٨٥م، تحمل إليه الهدايا وتطلب منه أن يكون للبيزنطيين قنصل بالإسكندرية أسوة بالبنادقة، فأجاب برقوق الإمبراطور البيزنطى إلى طلبه<sup>(٤)</sup>.

(١) ابن الصوري: نزهة النفوس: ج١ ص ٣٦٥ - ٣٦٦.

(٢) العيني: عقد الجمان ج٢٥ ورقة ٧٨.

(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج١٢ ص ٢١٧.

(٤) ابن حجر: إنباء الغمر ج١ ص ٣٠١، ابن الصوري: نزهة النفوس ج١ ص ١٢١.

وكذلك كانت العلاقات على عهد السلطان فرج بن برقوق حيث ذكر القلقشندي صورة خطاب من الإمبراطور مانويل إلى السلطان فرج بن برقوق سنة ٨١٤هـ / ١٤١١م، يخطب وده ويوصيه خيراً بالأقباط في مصر<sup>(١)</sup>، كما بعث إليه بالهدايا الحافلة<sup>(٢)</sup>.

### علاقة مصر بالقوى الأوربية:

ارتبطت مصر على عهد السلطان برقوق وابنه السلطان فرج بعلاقات عديدة — تجارية أو عدائية — مع بعض القوى الأوربية في حوض البحر المتوسط، وكان طبعاً أن ترتبط السلطنة المملوكية في تلك الفترة بالدول الأوربية ذات المصالح التجارية والسياسية والصلبية في البحر المتوسط.

بل كان لزاماً على هذه السلطنة — وهي إحدى قوى البحر المتوسط وصاحبة السيطرة على أهم طرق التجارة بين الشرق والغرب — أن تكون بينها وبين بعض الدول الأوربية هذه العلاقات<sup>(٣)</sup>.

والمعروف أن البندقية قد ربطتها بمصر العلاقات الودية بسبب صلتها التجارية بسلاطين مصر، الأمر الذي جعلها لا تقدم على التضحية بمصالحها التجارية مع حكام مصر من أجل التيار الصليبي العام<sup>(٤)</sup>.

ولذلك كانت البندقية أول من اهتز لنبا الهجوم الذي شنه بطرس لوزينجان ملك قبرص على الإسكندرية سنة ٧٦٧هـ / ١٣٦٥م، فأرسلت بعثة سياسية إلى السلطان شعبان سنة ٧٦٨هـ / ١٣٦٦م، تؤكد له أن السفن التي هاجمت

(١) القلقشندي: صبح الأعشى ج ٨ ص ١٢١ - ١٢٢، انظر نص الخطاب بالملحق رقم ٩ ص ٢١٣.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور ج ١ القسم الثاني ص ٨١٢.

(٣) سعيد عاشور: العصر المالكي في مصر والشام ص ٢٦٥ - ٢٦٦.

(٤) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ص ٤٣٠، ابن حجر: إنباء الغمر ج ١ ص ٧٤ - ٧٥.

الإسكندرية لا تمت إلى البندقية بصلة، وأن البنادقة لم يعملوا من جانبهم على مساعدة الملك بطرس، كما أنهم لم يشتركوا معه<sup>(١)</sup>. وبسبب الصلات التجارية أيضاً ظلت البندقية تتمتع بمركز ممتاز طوال عهد السلطان برقوق وابنه السلطان فرج، وإن كانت علاقاتها بالسلطان فرج قد شابهت شيئاً من الفتور لفترة قصيرة، سرعان ما عادت بعدها إلى ما كانت عليه من الصفاء.

من ذلك أن أندريه جستينيان قنصل البنادقة كان قد تقدم إلى السلطان فرج ابن برقوق سنة ٨٠٦هـ / ١٤٠٣م، يشكو إليه ما تعرض له تجار البنادقة من معاملة غير طيبة من جانب السلطات المختصة بثغر الإسكندرية، وقد عرض القنصل بالسلطان حين ذكر له عزمه على تصفية التجارة بين البلدين والعودة إلى البندقية إن لم يحسن الأمراء معاملة رعاياه، ولم يكتب القنصل بذلك، بل ألح للسلطان بأن البنادقة قادرين بعد ذلك على العودة والتمتع بامتيازاتهم، أما السلطان فرج فإنه لم يطرح ما عليه عليه الفطنة في مثل هذا الموقف، ولم يرد على تهديده بإجراءات قد تسيء إلى العلاقات بين الدول الأوربية ومصر، وإنما أجابه في هدوء بأن ما يتوعد به غير ممكن التنفيذ لعدم توحد العالم المسيحي ووجود أكثر من سلطة دينية (بابا) على عكس العالم الإسلامي الذي يتمتع بتوحد السلطة الدينية في شخص خليفة المسلمين<sup>(٢)</sup>، مما يفهم منه أن بإمكان مصر في مثل هذه الظروف تجميع القوى الإسلامية ضد البنادقة إذا ما تعرضت مصر للهجوم.

وكيف كان الأمر فقد عادت التجارة مع البنادقة مرة أخرى بعد أن تم الصلح بين الجانيين، والذي توسط فيه ييلوتي piloti التاجر الكريتي بمصر، وإن كان السلطان فرج قد اشترط على البنادقة في هذا الصلح شروطاً قاسية، كما أخذ منهم الضمانات الكافية لحماية رعاياه وبلادهم من عبثهم<sup>(٣)</sup>.

(١) سعيد عاشور: قرص والحروب الصليبية ص ٧١.

Dopp: Op Cit p.p 83- 84.

(٢)

(٣) حكيم أمين: قيام دولة المماليك الثانية ص ١٥٣.

وهكذا أخذت العلاقات بين السلطان فرج وبين البنادقة في التحسن والازدهار، كما تردد تجارهم من جديد على ثغرى الإسكندرية ودمياط، ولا أدل على ذلك من هذا الكتاب الذى بعث به ميخائيل دوج البنادقة مع رسوله نيقولا البندقى إلى السلطان فرج سنة ٨١٤هـ / ١٤١١م، وفيه يشير إلى تردد التجار البنادقة على الديار المصرية متمتعين بعهد السلطان ورعايته، وفي آخر الكتاب يوصى الدوج السلطان فرج خيرا بالقنصل البندقى، حتى تحصل الطمأنينة للتجار، ويترددوا إلى مملكته<sup>(١)</sup>.

أما الجنوية فقد اتسمت علاقاتهم مع السلطنة المصرية بالقرصنة في أغلب الأحيان، وعلى حين ازدادت هجماتهم على الشواطئ المصرية في أوائل حكم السلطان برقوق، فقد عهد برقوق في سنة ٧٨٦هـ / ١٣٨٤م، إلى الأمير الطنبغا الجوبانى بتدعيم القوى البحرية على شواطئ الدولة لتأديب الجنوية ودفع خطرهم<sup>(٢)</sup>، وقد حدثت عدة اشتباكات قرب سواحل دمياط في سنة ٧٨٧هـ / ١٣٨٥م، بين الأسطول المماليكى والسفن الجنوية، وانتهت بقتل عدد كبير من الجنوية وأسر نحو خمسة وثلاثين منهم، كما غنم المماليك منهم غنائم عظيمة، ثم عرض الأسرى على السلطان فقتل بعضا منهم وأبقى على البعض الآخر<sup>(٣)</sup>.

وعلى الرغم من هذا الانتصار فقد عمل السلطان برقوق على الاستعداد بحملة جديدة لتأديب الجنوية مرة أخرى، وحين وصلت إلى مسامعهم هذه الاستعدادات أسرعوا إلى مصالحة السلطان برقوق في سنة ٧٨٨هـ / ١٣٨٦م كما قدموا له الهدايا الحافلة<sup>(٤)</sup>.

(١) القلقشندي: صبح الأعشى ج ٨ ص ١٢٣ - ١٢٤، انظر نص الخطاب بالملحق رقم ١٠ ص ٢١٥.

(٢) ابن الصوقى: نزهة النفوس ج ١ ص ٩٥، ١١٧.

(٣) ابن حجر: إنباء الغمر ج ١ ص ٣٠٢، السخاوى: الذيل التام على دول الإسلام حوادث سنة

٧٨٧هـ، ابن إياس: بدائع الزهور ج ١ القسم الثانى ص ٣٦٠.

(٤) ابن الصوقى: نزهة النفوس ج ١، ص ١٢٢ - ١٣٤.

غير أن الجنوية عادوا بعد قليل إلى أعمال القرصنة من جديد والاعتداء على سفن المسلمين في شرق البحر المتوسط سنة ٧٩٠هـ / ١٣٨٨م، فأغاروا على بعض سفن تابعة للسلطان برقوق كانت قادمة إلى مصر وأسروا من فيها، وكان من بين هؤلاء الأسرى مجموعة من أقارب السلطان، الأمر الذي أغضب برقوق وجعله يصادر ممتلكات الجنوية، ويقبض على عدد كبير منهم<sup>(١)</sup>، مما أرغم الجنوية على اللجوء إلى مفاوضة السلطان حتى يعدل عن قراره بمصادرة أموالهم والإفراج عن رعاياهم مقابل إطلاق سراح الأسرى<sup>(٢)</sup>.

وفي تاسع عشر المحرم سنة ٩٧١هـ / ١٣٨٩م، قدم رسل الجنوية بالأسرى ومعهم هدية من ملك جنوا إلى السلطان برقوق، فقبل السلطان الهدية وأخلع عليهم<sup>(٣)</sup>.

ولم يلبث الجنوية أن عادوا إلى نشاطهم العدائي مرة أخرى على عهد السلطان فرج بن برقوق، فأغار قراصنتهم على طرابلس الشام سنة ٨٠٤هـ / ١٤٠١م، واستولوا على سفينتين من السفن التجارية كانتا محمّلتين بالبضائع إلى مصر<sup>(٤)</sup>.

وبعد ذلك بعامين تحرك De Boucicaut حاكم جنوا على رأس قوة بحرية كبيرة على عزم أن يضرب الإسكندرية، غير أن حملته سنة ٨٠٦هـ / ١٤٠٣م باءت بالفشل، وذلك بسبب الاحتياطات التي اتخذها السلطان فرج بن برقوق<sup>(٥)</sup>، لعلمه سلفاً بمهمة De Boucicaut ومراقبة تحركاته<sup>(٦)</sup>.

(١) ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك ج٩ القسم الأول ص ٢٣، ابن حجر: إنباء الغمر ج١ ص ٣٥٢.

(٢) ابن حجر: نفس المصدر والجزء ص ٣٥٢، ابن الصيرفي: نزهة النفوس ج١ ص ١٧٤.

(٣) ابن حجر: إنباء الغمر ج١، ص ٣٦٤، ابن الصيرفي: نزهة النفوس ج١ ص ١٨٢.

(٤) ابن قاضي شهبه: ذيل تاريخ الإسلام المجلد الثاني ورقة ١٩٥.

Dopp: Op. Cit p.O. 89 - 90.

(٥)

Ibid: p. 87.

(٦)

على أن الجنوية عادوا في سنة ٨١٠هـ / ١٤٠٧م ليعرضوا مفاوضاتهم على السلطان فرج بشأن إعادة العلاقات بين الدولتين، وانتهت هذه المفاوضات بالصلح، على أن يدفع الجنوية مبلغ ثلاثين ألف دينار تعويضا عن الخسائر التي أحدثوها، وفي حالة ما إذا تكررت هذه الحوادث مرة أخرى فإن الحكومة المملوكية سوف تقبض على الجنوية بمصر وتصادرهم جميعا<sup>(١)</sup>.

وهكذا توقفت أعمال القرصنة من جانب الجنوية، كما أخذت العلاقات بين جنوة ومصر في التحسن والازدهار.

وليس أدل على ذلك من هذا الكتاب الذي ورد إلى السلطان فرج بن برقوق في صفر سنة ٨١٤هـ / ١٤١١م من القبطان الجنوي بميناء الماغوصة<sup>(٢)</sup> بقبرص، وفيه يتحدث القبطان عن علاقات المودة والسلم القائمة بين جنوة ومصر، كما يلتمس من السلطان فرج حسن معاملة التجار الجنوية في مصر ونشر العدل بينهم، وقد أوضح القبطان في رسالته أن المراكب الجنوبية لا تتوانى من ناحيتها عن حماية مسلمي مصر من التجار والمسافرين، وكذلك حماية الموانئ الإسلامية من هجمات القراصنة الأجانب<sup>(٣)</sup>.

وثمة ملاحظة على أعمال القرصنة السابقة التي قامت بها جنوة، واشتركت معها في بعض الأحيان صقلية وبيزا، كما انضمت إليهما قراصنة من الروادسة والقبارصة<sup>(٤)</sup>.

وهي أن هذه الأعمال كانت ترتبط دائما بانشغال السلطان برقوق بالنزاع الداخلي مع العناصر المناوئة لحكمه، أو استعداداه لمواجهة الخطر التيموري القادم

(١) Dopp: op. cit p.p. 94 - 95.

(٢) الماغوصة: الاسم الذي أطلقه العرب على مدينة فاما جوستا، على الشاطئ الشرقي لجزيرة

قبرص، المقريري: السلوك جـ ٣ القسم الثالث ص ١٠٣٩ حاشية رقم ٢.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى جـ ٨ ص ١٢٤ - ١٢٥، انظر نص الكتاب بالملحق رقم ١١ ص ٢١٧.

(٤) حكيم أمين: قيام دولة المماليك الثانية ص ١٥١ - ١٥٢.

من الشرق، وكذلك كثرة الفتن والانقسام الداخلي على عهد السلطان فرج بن برقوق.

وقد بلغت أعمال القرصنة أشدها في سنة ٨٠٦هـ / ١٤٠٣م حين تعرضت اقتصاديات مصر للتدهور بسبب قصور النيل في هذه السنة، وما صحب ذلك من المجاعات والأوبئة.

ومهما يكن من أمر فإن تزامن أعمال القرصنة مع ما يطرأ على الحالة في مصر من اضطرابات يوحي لنا برأى، ولنا أن نتساءل: ألم يكن من بين تجار الفرنج الذين كانوا يترددون على أسواق مصر والشام والذين منحتهم الدولية حربة الإقامة والتنقل، من كان عيناً للملوك الفرنج ينقل إليهم أخبار الدولة وأحوالها.

ربما يقوى هذا الرأى أن التاجر الكريتي بيلوتى *piloti* الذى عاش في مصر أواخر القرن الرابع عشر الميلادى وأوائل القرن الخامس عشر — حين قابل البابا في روما، قدم له كتابا يصف فيه أحوال مصر العسكرية والاقتصادية والسياسية في أوائل القرن الخامس عشر، كما اقترح عليه مشروعاً لمهاجمة مصر<sup>(١)</sup>.

ولا ريب أن بيلوتى كان يعرف الكثير من الأحوال في مصر زمن السلطان فرج بن برقوق الذى اتسم عهده بكثرة الفتن والاضطرابات الداخلية، بل كثيرا ما توسط بيلوتى في التمساع القائم بين السلطان فرج بن الفرنج.

(١) دراج: الممالك والفرنج ص ٢٠٣ - ٢٠٤.